

## الفصل العاشر

### جيرنتيون<sup>(١)</sup>

ويتضح لنا تشعب القيم العديدة في القصيدة التي أطلق عليها إليوت اسم « جيرنتيون » أي الرجل الهرم . وجيرنتيون هذا قد فقد متعة الحياة وبهجتها وانزوى في ركن من أركان حجرته يستمع إلى صبي صغير يقرأ له كل ما يهيمه من أمور وأخبار لأنه ضرير . وفي هذه القصيدة أيضاً كما رأينا في « بروفروك » يتخذ إليوت المنولوج أساساً لمهاجته فتساب المشاعر والذكريات في تلقائية محببة نستشف من ورأها كل ما يدور بخلد هذا العجوز المنطري على نفسه :

« إنني أحيها هنا كرجل مسن في شهر من شهور الجفاف

يقرأ لي صبي ، وأنتظر هطول الأمطار .

لم يكن لي نصيب أن أختبر حمية المداخل

والمعارك حيث الأمطار الدافئة

فلم أركض في المستنقعات المالحة رافعاً سيني ،

وقد نال مني الذباب ،

إن منزلي قديم متداعي »<sup>(٢)</sup>

إن هذا المنزل قد تداعي كمثلك المدينة الحديثة التي يحيا جيرنتيون في وسطها ،

“Gerontion”

(١)

“Here I am, an old man in a dry month,

Being read to by a boy, waiting for rain.

I was neither at the hot gates

Nor fought in the warm rain

(٢)

Nor knee deep in the salt marsh, heaving a cutlass,

Bitten by flies, fought.

My house is a decayed house.”

Ibid., “Gerontion”, p. 37.

هى الأخرى آخذة فى الاضمحلال والتداعى . إن إديوت بعد أن ركز اهتمامه على ضعف القيمة الفنية فى المجتمع الحديث كما رأينا فى قصيدة « بيربانك ومعها بايديكار : بليشتان ومعها سيجارته » قد تحول فى « جيرونتيون » إلى الحديث عن اضمحلال القيم الروحية فى مجتمعنا الحاضر . إنه هنا يسخر من جيرنتيون الذى قضى حياة كلها فتور فلم يعرف للقيم الأخلاقية أى معنى أو مغزى ، كما أن خبرته محدودة للغاية فلم يشترك فى الحروب والمعارك . فهو والحال كذلك لم يذق طعم الحياة العملية بلحوا ومرها : هذا بالإضافة إلى أن القيم العليا كانت عارضة بالنسبة له ، فهو لا يعرف عن كنهها شيئاً ، بل وجه اهتمامه إلى محيطه الضيق الذى يحيا فى وسطه ، وهى البيئة المحدودة التى حوله والتى تتكون من :

« ما عر يسعل أثناء الليل فى الحقل المرتفع ؛

وصحور وطحالب ونباتات طفيلية وحديد .

وسيدة تعمل فى المطبخ ، وتعد الشاى .

وتعطس فى الماء ، وتنظف البالوعة النكدة »<sup>(١)</sup> .

هذه هى العناصر التى تكون فى مجموعها العالم الصغير الذى يعيش فيه جيرنتيون ، وهو عالم يتسم بطابع العزلة والقيم العارضة المتصارعة التى تولد الحيرة النفسية وعدم الاستقرار ، كما يتسم أيضاً بالفتور العاطفى والجذب الانفعالى . تلك هى مكونات الحياة السلبية التى يحياها جيرنتيون . وفى وسط هذا القحط المخيم على كل الأرجاء يندوى جيرنتيون فى ركن من أركان حجرته ويبتظر هطول الأمطار فهذا هو كل ما فى مقدوره أن يقدم عليه . إن هى إلا حياة جافة قد خلت خلواً تاماً من الفكرة الأصيلة والعاطفة الأمانة .

"The goat coughs at night in the field overhead;

Rocks, moss, stonecrop, iron, merds.

The woman keeps the kitchen, makes tea,

Sneezes at evening, poking the peevish gutter."

Ibid

وبعد أن استقر صاحبنا في زاوية الحجرة أخذ الفتى الصغير يطالع له بعض مقتطفات من كتب التاريخ عن سير الأبطال والأحداث العظيمة في الماضي ، فاكسب بذلك حصيلة فكرية وثروة عقلية بعد أن اطلع على نفائس الماضي بتراته العظيم :

« وبعد كل هذه المعرفة ، أى عذر تلتسمه ؟ عليك أن تفكر الآن في التاريخ وفي دهاء فروعه ، وفي تدابيره ونتائجه ، فقد يخذلك مخادع بطموحه النادر ويرشدك بوحى من خيالاته . . . . أذكر جيداً أننا لن ننجح بواسطة الحرف أو الشجاعة . فنحن نعلم من شأن الرذائل ونمجدها على أنها أعمال بطولية . ونقبح علينا الفضائل خوفاً من الجرائم الفاضحة . هذه العبرات قد تساقطت من شجرة الخنق » (١).

بعد هذا الخداع الحسى والنفسى بل والعقلى أيضاً ، ذلك الخداع الذى يجيا في وسطه الكثير من الباحثين الذين تقودهم الرغبة الجاهجة نحو المجد والعظمة والته والكبرياء ، علينا أن ندقق جيداً فيما عمى أن نختاره . هذا إلى أن فرص الخير والشر وحالات العقاب والثواب والنظرة الصحيحة المدققة لكل ما يعرضنا من أمور : الفاحصة لكل ما يدور بخلدنا وما يعترض طريقنا ، تلك النظرة الموضوعية البعيدة عن الخوف الشديد من المجتمع والرأى العام ، هذه كلها

"After such knowledge, what forgiveness ? Think now  
History has many cunning passages, contrived corridors  
And issues, deceives with whispering ambitions,  
Guides us by vanities. . . . Think  
Neither fear nor courage saves us. Unnatural vices  
Are fathered by our heroism. Virtues  
Are forced upon us by our impudent crimes  
These tears are shaken from the wrath-bearing tree."  
Ibid., p. 38.

قد تتبعها إليوت إلى أن وصل إلى جذورها الأولى التي تركزت في « شجرة الحلق » وهي الشجرة التي أكل منها آدم فجلب الشقاء على البشرية جمعاء ، فمنها تصبب العرق ، ومنها أذرفت الدموع في سحاء .

ولا يعني إليوت من وراء إشارته إلى شجرة آدم في البيت الأخير أنه يزمن بالحنمية فالأبيات السابقة بل والقصيدة كلها توضح لنا إيمانه العميق بحرية الاختيار . ولعلنا نستشف من وراء ذلك نظره الإيجابية إلى التاريخ الذي اتخذه في الأبيات السالفة مثلاً لاتجاهه الموضوعي في النقد ، فهو يهدف إلى إعادة تقييم التاريخ على أمس سليمة بعيدة عن النزوات الشخصية والاتجاهات الفردية . وهو يعترف أنه من العسير علينا أن نصل إلى نتيجة سريعة في هذا المضمار ، إذ يقول :

« تذكر أخيراً

أننا لم نصل إلى نتيجة بعد ، حيناً أنذوي  
في بيتي الذي استأجرته . وأخيراً تذكر أيضاً  
أنني لم أقدم لك هذا العرض دون غاية في نفسي

فلم تجلبه لك

الشياطين الجهنمية .

سأربحك من عتاء الضكير في هذا الأمر بكل ما أوتيت  
من صديق وأمانة .

فقد كنتُ قريباً من قلبك والآن طرحت خارجاً

ففقدت جمال ( الإيمان ) لرعبك وفزعك وكثرة فضولك .

وهكذا تخليت عن عاطفتي : ولم أحتفظ بها

طالما أن كل شيء بالنسبة لك ما له إلى الفساد ؟

لقد فقدت قلبي على النظر والشم والسمع والنوق واللمس :

فكيف السبيل إلى الانتفاع بها لأقرب منك ثانية» (١) ؟

يفرق هنا إليوت بين سبل الإيمان قديماً في بساطتها وتسليم أهلها لاستجاباتهم الروحية وبين الإيمان في عصرنا الحاضر وإخضاعه للمقدمات والقروض والحجج والقضايا المنطقية بل والقوانين والمناهج العلمية ، وبهذا ضاع رونقه الذي تجلى في بساطته . ونتج عن ذلك وجود الرعب الذي أصاب الكثيرين بعد أن فقدوا الإحساس بعظمة الإيمان والتصديق بجبروته . ويرى إليوت أيضاً أنه من العسير علينا أن ندخله في قلوب النفوس الضالة طالما أن حواسنا قد شوهتها المدنية الحديثة . وتربعت على عروش قلوبنا اللذة الوقتية العارمة ، وسيطرت على عقولنا الانتجاهات المادية الآلية . فهذه الحواس التي أشار إليها إليوت والتي خضعت لكل هذه الظروف ، قد أصبحت في نظره في حيز العدم . إذ كيف السبيل إلى قلب لا يحس ؟ لقد انعدمت الرغبة في التسليم الجميل بقدرة الخالق جل شأنه ، فكان الفزع ، وكانت الحيرة النفسية ، والشطط الذهني . وبليلة الأفكار . وفساد الحياة وكل ما يتصل بها .

إن هذا الشعاع الوضاء الذي أضاء حياة القدماء بمدنيتهم العظيمة قد ضاع الآن وسط متاهات الإلحاد وموجات الإنحلال والتفكك التي ندعها تمر دون

“Think at last

(١)

We have not reached conclusion, when I  
Stiffen in a rented house. Think at last  
I have not made this show purposelessly  
And it is not by any concitation  
Of the backward devils.  
I would meet you upon this honestly.  
I that was near your heart was removed therefrom  
To lose beauty in terror, terror in inquisition.  
I have lost my passion : why should I need to keep it  
Since what is kept must be adulterated ?  
I have lost my sight, smell, hearing, taste and touch :  
How should I use them for your closer contact ?”  
Ibid., pp. 38-39.

حكمة ولا روية . وتنحصر مأساة الإنسان في عصرنا الحاضر في سلبيته التي يمثلها  
چيرنتيون وفي ابتعاده عن مشاكل الحياة اللهم إلا ما يعمه شخصياً بطريق  
مباشر ، وفيما عدا ذلك فهو قابع في عقر داره يتعلق بآمال واهية بعد أن ملأ  
قلبه اليأس .